الباب الأول

المرأة .. أين كانت
وكيف أصبحت
التمهيد : قبل أن
الفصل الأول : داخل
وخارجها
الفصل الثانى :
الفصل الثالث :
الفصل الرابع : زعيمات سياسيات
من غرف خلع الملابس

تمهيد
قبل.. أن تبدأ اللعبة

حين تصل إليك بطاقة دعوة لمشاهدة إحدى المباريات « السياسية » فى الملعب، أو شاشة التليفزيون . . لابد لك من أخذ وضع الاستعداد للمتابعة . . وقد يقتصر دورك على المشاهدة فقط ، وقد يمتد إلى أبعد من ذلك . والأمر يتوقف فى رأينا على نوع المباراة وأهميتها . . وكذلك على الفريق المشارك فيها . .

وحتماً سوف تتساءل عن بداية اللعبة . . تاريخيًا وجغرافيًا . . وبجولة ذهنية قد تستغرق لحظات أو ساعات أو شهورا . . يمكن سماع صوت التاريخ وهو يقول . . إن بداية اللعبة السياسية كانت فى بلاد الإغريق . . حيث سقراط وأفلاطون وأرسطو . هؤلاء الذين يعتبرهم التاريخ أول من تكلموا عن السياسة وعرفوها . . بل وعرفوا الهدف منها . ومن قبلهم لم يكن للبشر أية معرفة من قريب أو بعيد بالسياسة أو باللعب فى ملاعبها .

إن هؤلاء الفلاسفة وعلى رأسهم أرسطو . . قد عَرَّفوا السياسة بأنها فن حكم الناس على أساس من الفضيلة والأخلاق . بل وأكثر من ذلك ، ذهبوا إلى تحديد الهدف من هذه السياسة التى عرَّفُوها فى كتبهم ودساتيرهم . . وإن هدف ممارسة السياسة هو تحقيق الرخاء والعيش الطيب للبشر .

وحين يثور السؤال: وأين كان موقع المرأة من الملعب السياسى داخل هذه المجتمعات التى اخترعت مفهوم السياسة وهدفها ؟؟

بكل أسف نقول : إن هؤلاء الفلاسفة قد أغفلوا المرأة تماماً ، وأبعدوها عن مجال السياسية ، واعتبروها مجرد دمية أو تمثال جميل ينظرون إليه باستمتاع . ولكن هل قبلت المرأة أن تظل بعيدة عن هذا الملعب . . تجلس فى مدرجات المتفرجين ؟؟ . لا أظن . . إن هذا السؤال هو ؛ جزء كبير من موضوع دراستنا عن النساء ولعبة السياسة .

إن حياتنا السياسية قديماً وحديثاً ما هى إلا ملعب كبير . . فوق أرضه الخضراء تتبارى الفرق . . غالب ومغلوب . . ولكل منا فريق يشجعه وليس بالضرورة ينتمى إليه ، وفريق آخر نقف ضده أو نعارضه ، وأيضاً ليس من الضرورة أن يكون الفرد منا منتمياً لهذا الفريق

إن هذه الفرق هو ما اصطلح على تسميتها بالأحزاب . هذه التسمية لم يكن لها وجود لحظة ولادة علم السياسة فى مدن الإغريق . . وعلى ذلك لا أعرف سبب إصرار بعض الكُتَّاب على تسمية الحياة السياسية بأنها مسرح كبير !! . ربما يرجع ذلك فى رأيهم إلى أن مفهوم السياسة قد تحول فى فترة من فترات العصور الوسطى إلى فن الخداع و المكر والوقيعة . وهو ما يخالف تعريف أرسطو الذى أشرنا إليه آنفاً . أنه المفهوم السائد، والذى لا يزال يدور حوله التنافر والخسة والخصام بين الفرق والأحزاب السياسية ، برغم المودة الظاهرة .

لقد آن الأوان فى عصرنا الحديث أن نعيد للسياسة أخلاقها ، ونتمسك بالتعريف الأرسطى لها بأنها فن حكم الناس على أساس الحكمة والفضيلة ، ونبتعد عن تعريف ميكيافيللِّى الذى يرى أن السياسة ماهى إلا نوع من المكر والخداع !!

وإذا ما قبلنا مفهوم السياسة على أنه أساس الأخلاق والحكمة فلابد لنا من تغيير كلمة المسرح السياسى . إننا نريد الجولات والمباريات السياسية نظيفة . . أخلاقية ، تبتعد عن الألاعيب وطرق الخداع . وبالتالى تتحول السياسة إلى ملعب كبير ، تتبارى فوق أرضه الأحزاب السياسية المختلفة من يمين ويسار ، ومن رأسمالية وشيوعية ، ولكل من هذه الفرق والأحزاب انتصار وهزيمة ، وفى كثير من الأحيان تتعادل !! .

إن مفهوم الملعب السياسى لَـهُـوَ أقدر وأنسب لمجتمعنا العصرى الذى نعيش فيه من مفهوم أو تعريف المسرح السياسى ؛ لأن ارتباط السياسة بالملعب ، يجعلها مجرد مباريات شريفة ، . فيها الغالب والمغلوب . والغالب فيها يملك الوسائل والطرق التى تؤهله لهذا الانتصار ، وكما يقول المثل الشعبى « كله على المكشوف » . إلا القلة القليلة من أصحاب الأحزاب والفرق التى يمكن لها أن تخطط لهذا النصر وهزيمة الخصم بعيداً عن أنظار المشاهدين . . إنه تخطيط غرف خلع الملابس ، وهتافات المدرجات !

● ● ●

ويبرز السؤال من جديد :

ما هو دور المرأة فى هذا الملعب الكبير .. ؟ !

إنه سؤال تحتاج الإجابة عليه إلى مرواغة . . حيث تتراوح ما بين القول والفعل . إننا طوال حياتنا التى نعيشها وعاشها غيرنا نشاهد المرأة تحاول أن تلحق بقطار الألعاب بمختلف أنواعها ، حتى وصل بها الحال الآن إلى أن تتقدم داخل حلبات الملاكمة . . وتظهر عضلاتها فى مسابقات كمال الأجسام !! بل أكثر من ذلك ، أننا نراها اليوم لاعبة كرة قدم وسباق وجرى !! .

إننا هنا نقصد المرأة بالشكل العام . . دون التمييز بينها ـ جغرافياً أو إقليمياً ـ فالمرأة هناك . . خارج نطاق جغرافية العالم العربى . فى آسيا وأوربا .

● ● ●

إن المرأة داخل الملعب السياسى العربى الآن قد اكتفت فقط بدور المتفرج داخل المدرجات ، وربما لا تشاهد المباريات السياسية أو تشارك فيها إلا من خلف الأبواب أو من داخل غرف خلع الملابس !! مع أن المرأة العربية والمصرية بالذات ، كانت سبَّاقة فى الوصول إلى الملعب السياسى عن غيرها من نساء أوربا والعالم القديم ، وهنا يكمن العجب !! إن دورها آنذاك لم يكن فى موقع المتفرج أو التشجيع أو داخل غرف خلع الملابس ، بل كانت تشارك فى اللعبة . . وكثيراً ما أحرزت الأهداف

فى مرمى أعدائها قبل أصدقائها ، مِمَّا جعل اسمها يُكتَب فى سجل الشرف على مدار تاريخها الطويل ولكن ، هل ستعود المرأة العربية من جديد إلى أداء دورها فى الملعب السياسى ؟ وهل ستتبوأ مكانتها كزعيمة سياسية على الساحة العربية؟

أقول : ربما يحدث ذلك إذا تغيرت الظروف الاجتماعية الحالية واقتنع الرجل بدور المرأة فى مجال السياسة ، وقيامها بدورها لإقناع الرجل بإمكاناتها فى هذا المجال وبأنها لاتقل كفاءة عن تاتشر ، وبنازير بوتو ، وأكينو ، وغيرهنَّ .

دقات عنيفة على أبواب التاريخ . . انفتحت الأبواب . . جاءوا إلينا بالملفات العتيقة . . فردوا أمامنا الأوراق الصفراء . لقد حانت لحظة المواجهة . . وأول هذه الأوراق التى صادفتنا . . ورقة الخلق . . حيث آدم وحواء . . بعد نزولهما الأرض لتعميرها .

تقول سطور التاريخ الأولى . . المستمدة من الكتب الدينية ، وفى مقدمتها القرآن الكريم . . إن الله سبحانه وتعالى خَلقَ آدم عليه السلام أولاً . . ومنه خلق له رفيقة لوحدته . . يأتنس بها ويسكن إليها ، فكانت حواء . . وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، ومن ثم تكونت الأمم والشعوب .

وبعد الفترة التى تلت نزول آدم إلى الأرض . . لم يتهيأ لذاكرة الإنسان آنذاك أن تسعفه بأن يسجل حياته على الأرض ، فلم يحدث ذلك إلا بعد أن بدأت حياته تستقر على ظهر البسيطة . . بعد حياة الصيد والعيش داخل الكهوف . . وكانت الحياة آنذاك تسير بالمرأة والرجل جنباً إلى جنب سواء بسواء . . ولكن ربما تخلل ذلك فترات زمنية كان للرجل فيها السيادة والكلمة العليا . . تبعاً للظروف الاجتماعية والاقتصادية التى ارتبطت بحياة البشر على الأرض هذه الأزمنة القديمة .

ومن بعد عصور الاستقرار التى ارتبطت بحياة البشر فى مجالات الزراعة وبناء الحضارات على ضفاف الأنهار . . بدأ الإنسان يفكر فى نفسه وفى حياته الاجتماعية ؛ ومن ثم نشأت النظم الاجتماعية المختلفة ، التى بدأت بالأسرة وامتدت حتى شملت

القبيلة ، ومن بعدها المجتمع المتشابه فى اللغة والمصالح وأصبح الإنسان يعشق العيش داخل تجمعات اختارها هو بنفسه ، ومن هنا بدأ ظهور القرية ، ثم تطورت القرية واتسعت وتحولت بدورها إلى مدينة ، ومن مجموع المدن كانت الدولة .

وإذا ما نظرنا إلى خريطة العالم القديم والمناطق التى كان يسكنها إنسان العصر القديم ـ حين بدأ يستشعر قيمة الحضارة ، ويساهم فى تعمير الأرض ـ نجد أن هذه الخريطة كانت مقسمة قسمين : أحدهما نسميه الشرق ، والآخر الغرب . وفى كل قسم منهما كان يعيش الناس ، وتجمعهم لغات ومصالح وأفكار مشتركة ، كانت هى الرباط القوى الذى يدفعهم إلى الأمام أو يعود بهم إلى الخلف .

وفى الغرب كان يعيش الإنسان ، فى مدن ن الإغريق والرومان . . وفى الشرق ـ وبالقرب من ضفاف الأنهار ـ كان الإنسان يعيش فى بابل ، والفرات ، ومصر النيل ، أو مصر الفرعونية . وقد ارتبطت حياة الإنسان فى هذه الأماكن بالقيام بأنشطة اقتصادية واجتماعية وسياسية ، كانت تختلف قليلاً أو كثيراً عما نحن عليه . ولكنها كانت نتاج حياته وتجمعه فى هذه المدن . ويظل الوجود المشترك داخل هذه المجتمعات بين الرجل والمرأة . . ويبرز دور المرأة حيناً ويختفى حينا آخر . . المهم أنه كان ولا يزال هناك تلازم بين كل من الرجل والمرأة داخل هذه المجتمعات .

وفى بحثنا عن دور المرأة فى الحياة السياسية أو الحياة العامة داخل هذه المجتمعات . . قسمنا حديثنا هذا وفقاً للوضع الحضارى العام لهذه المجتمعات ، حتى يسهل علينا أن نعرف دور المرأة ومكانتها داخل هذه المجتمعات .

■■ فتش عن المرأة عند

أفلاطون .. وجيرانه

داخل الأوراق الصفراء المتهالكة التى يحفظ التاريخ بداخلها أسراره . . حاولنا البحث والتفتيش عن المرأة . . كى نعرف مكانتها داخل المدن الإغريقية التى كانت تموج آنذاك بالحضارة والفلسفة والفنون . وللأسف لم نجد لها وجوداً أو أى اعتبار أو احترام ... كانت بالنسبة لهؤلاء القوم الذين أنجبت أرضهم أعظم فلاسفة العصور

القديمة ، مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو ـ مجرد أنثى لا قيمة لها . . يرتبط وجودها داخل حياتهم بالإنجاب والحيوانية . وكانت فوق ذلك تُعد من المخلوقات المنحطة ، وكانت نظرتهم إليها فى العرف العام أنها كائن ناقص مسلوب الإرادة ، ضعيف الشخصية [١] .

أما على مستوى الحقوق فقد كانت مسلوبة الحرية ، معدومة المكانة فى كل ما يتصل بالحقوق الشرعية ، ودليل ذلك أن فليسوفاً مثل أرسطو كان يعيب على أهل إسبرطة أنهم يتساهلون مع النساء داخل عشيرتهم ، ويمنحونهن بعض الحقوق التى تفوق قدراتهن !! [٢].

وربما يعتقد البعض أن عبارة أرسطو هذه قد تُفَسَّر على أنه كان للمرأة قسط من الحرية عند أهل إسبرطة . . فذلك شىء لم يحدث ، وإنما كانت المرأة مضطرة إلى التصرف فى أضيق الحدود فى غيبة الأزواج والآباء فى القتال ، فإن بيئة إسبرطة كانت دائماً تتصف بأنها بيئة عسكرية .

ورغم ما قرأناه من تمتع أهل مدن الإغريق بتلك الحضارة ، ومعاشرتهم أهل الفضائل والحكمة والعلوم والفنون ، رغم كل هذه المظاهر الحضارية العظيمة فإن المرأة لم يكن لها جود من قريب أو بعيد ، وكانت المرأة فى المجتمع الإسبرطى مجرد مخلوق مكروه ، وكذلك كان حالها فى بقية المدن الإغريقية ، مثل أثينا وغيرها من المدن . وكانت النظرة العامة إلى وجودها فى المجتمع مثل نظرتهم إلى أى شىء جميل يملكونه ، كقطع الأثاث مثلاً . وللأسف كانت تُباع وتُشْتَرى مثل هذه القطع .

وقد سجل الأستاذ الدكتور فؤاد العطار ـ أستاذ القانون العام ـ من خلال كتابه : (النظم السياسية والقانون الدستورى العام) أن أرسطو يتفق مع من سبقوه من فلاسفة اليونان ، أن السياسة ـ فى نظرة ـ هى فن حكم الناس . . وأن من الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى السلطة السياسية أن يكون المواطن ذكراً [٣] .

---

(١) المرأة بين الجاهلية والإسلام ـ سعد صادق ـ سلسلة دعوة الحق .

(٢) إسلام بلا مذاهب ـ د . مصطفى الشكعة ـ الطبعة السابعة .

(٣) النظم السياسية والقانون الدستورى ـ د . فؤاد العطار .

إنه إغفال متعمد من جانب المفكرين والفلاسفة داخل المجتمع الإغريقى لحقوق النساء ، وتفريط فى حقوقهن السياسية . وإن كانت بعض المصادر التاريخية تقول إن أرسطور فى رأيه هذا قد خالف رأى أستاذه أفلاطون ، الذى كان يرى ضرورة إقرار حق المرأة فى المشاركة فى الحياة العامة ، مع أنه ـ أى أفلاطون ـ كان يُـرَوِّج لفكرة شيوع النساء فى كتابه : الجمهورية . . بل وأكثر من ذلك ، نادى بإلغاء نظام الأسرة الذى يقوم أساسه وعماده على أكتاف المرأة .

ويستمر بحثنا عن المرأة وحقوقها السياسية فى البلاد المجاورة للبلاد الإغريقية . . أصحاب الحضارات والامبراطوريات التى عاشت قروناً طويلة . . ونقصد بذلك الامبراطويات الرومانية

ومن خلال التتبع المستنير والواعى لوضع النساء داخل هذه المجتمعات نجد أن حالها لم يكن بأحسن من حال نساء المجتمع الإغريقى . . بل إن الوضع هنا قد اختلف جغرافيًّا . . حيث امتدت حدود هذه الدولة ، وانتشرت جيوشها تخضع جميع الشعوب المجاورة إلى سيطرتها ، حتى وصلت إلى أعتاب الشرق ، وهذا الاختلاف الجغرافى جعل وضع المرأة يسوء فى كل مكان تصل يد الرومان إليه ، مما ساعد على زيادة انتشار نظام الرقيق الأبيض ، وبداية عصر حريم السلطان والامبراطور .

ولا شك أن العامل المساعد لاستمرار نظرة الرومان للمرأة ـ على أنها كائن من الدرجة الثانية ـ تأثرهم الشديد بالفكر الإغريقى ، حتى فى مجال الحياة السياسية . . حيث نقلوا عنهم نصوص الدساتير التى وضعها الفلاسفة هناك فى ذلك الوقت .

ويؤكد لنا هذا المعنى قول الدكتور مصطفى الشكعة : « ... ولم تكن المرأة عند الرومان بأحسن حالاً من أختها عند اليونان ، فقد كان تَعَدُّدُ الزوجات تقليداً من تقاليد الشرف والامتياز ، ولم يزل أمر الانتصارات المصحوبة بألوان الترف والفخامة أن جعلت من قدسية الزواج مجرد كلمة لا معنى لها . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تطور فى المجتمع إلى أن أصبح التسرى واتخاذ العشيقات الكثيرات العدد شيئاً

تعترف به الدولة رسميًّا ، والنتيجة ضياع المرأة ثم انزلاقها إلى مهاوى البيع والشراء»[٤].

وقد كان للرومان شعارهم فيما يتعلق بالمرأة وهو أن قيدها لا ينزع ونيرها لا يخلع ، ومن ثم فالمرأة فى هذا المجتمع الغريب لم تسترد حريتها إلا مع تحرير العبيد .

وبعد هذا كله هل نتصور أن مثل هذه المرأة يمكنها أن تشارك فى الحياة العامة ، أو أن يكون لها القدرة على المشاركة فى الحياة السياسية ؟ !

إن الأمر لم يقف عند هذا الحد لدى الرومان . . بل وصل بهم إلى اعتبار المرأة ضمن الأعضاء المؤقتين داخل نظام الأسرة . وقد ساد هذا بشكل سافر ضمن النظام الأبوى الذى اعترف به حكام روما آنذاك ، وتفاصيل هذا النظام ينقلها لنا سعد صادق فى كتابه « المرأة بين الجاهلية والإسلام » حيث يقول : « كان النظام الأبوى الذى كان معروفاً لدى الرومان ـ جعل السلطة كلها فى يد عميد الأسرة ، لا يشاركه فيها أحد . فالمرأة زوجة كانت أو ابنة كانت إحدى توابع العميد فى هذا النظام . وكانت الأسرة لذلك تتكون من قسمين : أعضاء دائمين وأعضاء مؤقتين . .

والأعضاء الدائمون كانوا يتألفون من العميد نفسه ومن أبنائه وأبناء أبنائه ـ إن اعترف بهم . .

والأعضاء المؤقتون كانوا يتألَّفُونَ من بنات العميد وزوجاته وبنات أبنائه ـ إذا اعترف ببنوتهن . ويظل هؤلاء أعضاء فى الأسرة فى كنف العميد ، أى قبل زواجهن ، فإذا تزوجت واحدة منهن انقطعت صلة قرابتها بأسرتها انقطاعاً تامًّا والتحقت بأسرة زوجها »[٥].

ولقد بلغ من المهانة التى لحقت بالمرأة كذلك فى هذا العصر الذى اكتفى حكامه بالرفاهية على حساب بقية أفراد الشعب ـ أن قرر أحد مفكريهم فى روما أن المرأة لا

---

(٤) د . مصطفى الشكعة ـ المصدر السابق .

(٥) سعد صادق ـ المصدر السابق .

روح لها ولا خلود . . وعليها أن تَعبد الرجل وتلزم خدمته !! وأن تُكَمَّمَ كالبعير ، أو الكلب العقور ، حتى لا يتأتى لها الضحك ولا الكلام !!

لقد كان يعاملون النساء معاملة أقل من معاملتهم للحيوانات ويتشككون فى إنسانية المرأة ويتمارون فى آدميتها ، حتى أصبحت كما مجهولا !!

■■ الشرق .. شرق

والغرب غرب .. منذ القدم

وإذا واصلنا البحث والتنقيب فى صفحات التاريخ القديم نجد أن أقدم الامبراطوريات حضارةً هى «بابل» من بلاد ما بين النهرين تلك الحضارة التى ازدهرت فى عصر «حمورابى» الذى يعد أشهر ملوك الدولة الآشورية . وعاشت بابل عصرها الذهبى فى عصره ، وتعد رسائله ومجموعة قوانينه المكتوبة بالخط المسمارى هى أقدم مجموعة وصلت إلينا وهى تمثل سيادة العدل لديهم . .

وإذا حاولنا أن نعرف : هل نالت المرأة البابلية حقوقها فى تلك الحضارة التى أشرنا إليها فسنجد الحقيقة المرة ، وهى أن المرأة لم تجد المكانة التى تليق بها فى تلك البلاد ، فلم يكن لها نصيب من الحرية ، بل كانت حبيسة المنزل ، وسجينة العادات والتقاليد التى لم تنصفها ، وكان يُنْظَـرُ إليها نظرة دونية منحطة ، تصل إلى حد أنها كانت تباع وتشترى بطريقة لا تليق بآدميتها . .

أما فى الصين فلم تكن مكانة المرأة آنَذاك بأحسن من مكانتها لدى البابليين ، وإن كانت نظرة أهل الصين أهون من نظرة أهل بابل ، فقد كانت المرأة لديهم تباع لسداد الديون ، أو يُدفع بها « كرهن » مادى لحين تسديد الديون المستحقة . .

أما فى بلاد اليابان فقد كانت المرأة عندهم ترتدى ملابس الحداد ليلة الزفاف على أساس أنها طلقت حياة الحرية ودخلت حياة العبودية . . والغريب أن زوجها كان إذا سئم منها وأصابه الملل والضجر ، باعها واشترى غيرها !! . وإذا مات آلت ملكيتها إلى ابنه الأكبر الذى يستطيع أن يبيعها بأى ثمن !! .

وفى بلاد الفُـرْس . لا نجد المرأة تَحْظَى بأية مكانة هناك . . حيث يقول الكاتب التركستانى أحمد أجانين: « إن المرأة الفارسية كانت تحت حكم زوجها ، إنْ شاء أعطاها الحياة ، وإنْ شاء قتلها !! » .

■■ مكانة المرأة

عند الفراعنة :

أيتها المرأة . . لقد أضنانى البحث . . وكدت أفقد أمل العثور على حقوقك لولا بصيص من أمل . . وشعاع من نور وجدناه يتسرب من بين أكوام الملفات التى تحوى قصص التاريخ ، لقد سمعنا من خلالها صوت المرأة يرتفع رويداً رويداً ، ورأينا جهادها المثمر فى مجال الخدمة العامة والشئون النسائية التى تخصها . لقد استطاعت خلال فترات التاريخ الفرعونى القديم أن تقنع الرجل بدورها وأهميتها . . وهو بدوره لم يأخذ حديثها مأخذ الجد إلا حينما شاهد وقارن ، وأخيراً آمن بدورها فى الحياة والمجتمع الذى تعيش فيه .

ولكن ذلك لم يمنع من وجود خلافات حول حقوق المرأة الفرعونية ، خاصة فى المجال السياسى ، ومع ذلك فهناك شبه إجماع فيما يتعلق بنظرة الاحترام التى يوليها المصرى القديم للمرأة . . وأعتقد أن ذلك يُعَدُّ ميزة لها بالقياس لما مَـرَّ بنا ورأيناه من إهمال وازدراء لها عند الإغريق ، أو الرومان ، أو البابليين ، أو الصينيين ، أو أهل فارس . .

وكان مدخلنا لتاريخ المرأة الفرعونية وحقوقها السياسية فى مصر القديمة . . رسومات المعابد التى على الجدران . . حيث شاهدناها شريكة للرجل فى المسئولية . وفى كل نواحى الحياة الدينية والدنيوية . ليس هذا على مستوى الإنسان العادى فقط ، بل امتد إلى مجال كرسى المُلك والسياسة . . فقد أقر الإنسان الفرعونى حق المرأة فى تولى عرش البلاد ، شهدت بذلك رسومات جدران المعابد التى أشرنا إليها . وإن كانت بعض الصور تُظْهِرُ الملكة أحياناً أقل حجماً من زوجها الملك ، وهذا ليس

معناه أنها امرأة وهو رجل ، وإنما كان ذلك إظهاراً لوضع الملك وقدراته وإظهاره فى حجم يلقى الرعب فى القلوب ، بما يتفق مع وصفه الإلّه !(٦).

ومن هنا يحق لنا أن نعلن ، وبصوت مرتفع يملأ بقاع الأرض : أن المصريين القدماء هم أول من اعترفوا بالمرأة وحقها وحياتها الخاصة والعامة ، بل هم أول من اعترفوا بحقوقها فى المجال السياسى . وهذا ليس مجرد اعتراف . . بل ممارسة وقيادة أيضاً .

لقد رفعها المصريون إلى العرش ، حيث سمحوا لها بتولى شئون الملك فى عهود تاريخية متفرقة ، مثال ذلك ما ذكرته بعض رسوم الحجارة على المعابد والأهرامات ، مثل « حتب » أُم الملك « خوفو » ، و « خنت » بنت الملك « منقرع » ، « وأباح حتب » ملكة طيبة . و « حتشبسوت » ابنة « آمون » ، و«نفرتيتى » زوجة « إخناتون » وكذلك «كليوبترا » الملكة التى عاصرت حكم الرومان وأذهلتهم ؛ لأنهم حين قابلوها وجدوا المرأة على عرش مصر . . فى حين أن المرأة لديهم كانت مجرد قطعة أثاث ، أو مواطنة من الدرجة الثانية .

والشىء المذهل حقًّا أن المرأة الفرعونية لم تتوقف حقوقها عند حد الحياة الدنيوية . بل رفعها المصريون إلى مصاف الآلهة . . وبرغم ما فى ذلك من سفه وتخريف ، فإنها وصلت إلى هذه المرتبة نظراً لما كان سائداً لديهم من معتقدات .

ولعل أبرز مثال على ذلك الأسطورة الخاصة بعبادة « إيزيس » التى اعتبرها المصريون إلهاً يرمز إلى الوفاء والأخلاق(٧) . وتؤكد على هذا المعنى درية شفيق فى كتابها عن المرأة المصرية الفرعونية ، حيث تقول : . . لقد كانت الحقوق السياسية للمرأة فى مقدمة ما تتمتع به نساء الفراعنة فى عهود الحضارة التى خلدها التاريخ . . فكانت المرأة ترتقى العرش لتحكم بلادها حكماً مباشراً بمفردها أو بمشاركة زوجها أو أخيها . وهذا هو قمة وأخطر وسائل استعمال الحق السياسى(٨).

---

(٦) المرأة المصرية بين الماضى والحاضر أحمدن طه محمد .
(٧) المصدر السابق .
(٨) المرأة المصرية من الفراعنة إلى اليوم ـ درية شفيق .

وحتى يكون حديثنا عن حقوق المرأة السياسية خلال عصر الفراعنة موثقاً وبعيداً عن العبارات الرنانة ، نسُوق العديد من الأمثلة لتولى المرأة الحكم فى عهد الفراعنة ، وهذا يعد قمة حصولها على الحقوق السياسية .

لقد سجل التاريخ وصدقت عليه آثار الفراعنة صوراً متعددة لهذه المرأة الفرعونية التى تعتلى العرش ، والتى نظر إليها المصريون الفراعنة نظرة مقدسة ، أمثال « تى » زوجة « إمينوفيس » وأم « إخناتون » و « نفرتيتى » زوجة « إخناتون » نفسه ، ومما يؤكد قناعة المصرى القديم كرجل فاهم لخطورة دور النساء فى الملعب السياسى . . أن «نفرتيتى » الملكة المصرية القديمة فوق دورها كملكة وقائدة وزعيمة سياسية . كانت زوجة لأخطر ملك وداعية لعبادة التوحيد . هذه المشاركة جعلت منها شريكاً أساسيًّا فى حركة الانقلاب الدينى التى قادها زوجها « إخناتون »[٩].

لقد استطاعت هذه الملكة بنفوذها السياسى أن تشارك فى وضع أسس الدين الجديد ، الذى توحدت فيه لأول مرة فى تاريخ البشرية على الأرض جميع الآلهة فى إلّه واحد . . « آتون » إلّه الشمس .

وإذا ما قلبنا صفحات التاريخ المصرى القديم أكثر وتوغلنا داخل المعابد والأهرامات والآثار العديدة التى كانت خير سجل لدور المرأة المصرية القديمة . . فإننا نقابل العديد من النسوة اللائى مازال وجودهن داخل الملعب السياسى الفرعونى قائماً حتى الآن . وأمامنا الآن امرأة مثل «كليوبترا» التى وقفت على قمة الهرم السياسى المصرى فى فترة من أحرج فترات التاريخ ، وأثبتت لغيرها من الرجال الذين اعتلوا العرش بعدها أو قبلها أنها كانت أكثر ذكاءً وحنكة وتصرفاً . . أنها كانت سيدة جبارة من سلالة الفراعنة ، نفاها أخوها كى يبعدها عن العرش ، ولكنها لم ترضَ ولم تستسلم لحياة النفى . . فغامرت بالعودة إلى الوطن ، واستطاعت أن تعود بالفعل إلى مصر ، واستردت حقوقها السياسية ، واعتلت عرش مصر من جديد . ولقد استطاعت بدهائها الذى اشتهرت به فى التاريخ أن تقاوم أطماع قياصرة الرومان ، إلى حد تمكنت فيه بسحرها وشخصيتها من إخضاع القادة الغزاة لتنقذ مصر من

---

(٩) المصدر السابق .

أطماعهم! . . بل كانت ترسم الخطط وتضع الوسائل لتجعل من روما التى فتحت العالم ولاية تابعة لمصر بدلاً من أن تكون مصر إحدى ولايات روما (١٠).

وبعد عصر « كليوبترا » اختفت المرأة المصرية من فوق الخريطة السياسية . حيث تمكن منها الرومان واقتادوا غيرها من النساء المعاصرات لها إلى حيث مكانتها فى القائمة المؤقتة طبقاً للنظام الأبوى الذى كان سائداً آنذاك فى الامبراطورية الرومانية .

(١٠) المصدر السابق .

الفصل الأول

داخل الخيمة .. إمرأة
وخارجها .. زعيمة سياسية

حين وقع الاختيار على هذا الموضوع كى يكون مجال دراستنا هذه . . كان فى الأذهان فكرة الغوص وراء خلفيات تاريخية مختلفة فيما يتعلق بمكانة المرأة داخل المجتمعات القديمة .

ومن ثم أمطنا اللثام فى عجالة عن الكيفية التى كانت عليها المرأة بشكل عام فى المجتمع الإغريقى والرومانى والمجتمعات الشرقية ، وتوقف بنا شريط التاريخ عند مصر الفرعونية واعتبرنا ذلك مدخلاً تمهيديًّا للحديث عن وضع المرأة بصفة عامة فى داخل المجتمعات العربية ، وهو الجزء الذى يمثل الباب الأول من دراستنا هذه .

وحين نتطرق إلى الحديث عن المرأة العربية ، ووضعها السياسى داخل المجتمعات العربية القديمة ، قبل ظهور الإسلام ، نجدها تنحصر جغرافياً فى منطقة شبه الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً ، وما اصطلح على تسميته بالعصر الجاهلى . وسوف نقسم حديثنا عن المرأة فى هذا العصر إلى مرحلتين . . الأولى ، وفيها نتناول بالحديث المرأة العربية قبل الإسلام ، ثم المرأة العربية بعد ظهور الإسلام .

أما فى المرحلة الثانية من حديثنا ، فسوف نتحدث عن المرأة المصرية والمرأة فى كافة الدول العربية الأخرى، باعتبار أن الإسلام قد صبغ هذه البلاد بالصبغة العربية الإسلامية ، وأصبح هناك شبه ارتباط قومى ودينى ، ومصالح مشتركة قائمة على أساس اللغة والدين .

وقبل أن يستغرقنا حديث التاريخ لابد أن نوضح أن هناك كلمات لابد من تفسيرها

مرتبطة بعنوان هذا الفصل ، خاصة حين نتحدث عن المرأة فى العصر الجاهلى . لقد اخترنا لفظ « الخيمة » لأنه يصور حياة المرأة فى ذلك العصر ، فهى كانت قعيدة الخيام لا تبارحها إلاَّ للضرورة ، وبالتالى كانت إحدى أمتعة الرجل يدافع عنها ، شأنها شأن متاعه الخاص . وكانوا ينظرون إليها كنظرتهم لشرف القبيلة وسمعتها . . وبالتالى وجب حمايتها من شبح الإغارة والسطو ، والبيع فى أسواق الرقيق . من هذا المنطلق كانت المرأة تمثل أحد مصادر المتاعب التى يواجهها البدوى العربى القديم ، حيث كان عليه فى الوقت الذى يوفر طعام يومه من الرعى أو الصيد أن يوفر كذلك الحماية للنساء اللاتى ينتمين إليه بصلة الدم والقرابة فى مجتمع كانت تشوبه العصبية القبلية ، والقسو ة الناجمة عن ظروف البيئة المناخية والاقتصادية .

و إن كان بعض المؤرخين وبعض الكُتاب الذين اهتموا بقضايا المرأة يفضلون تسمية هذه الفترة الزمنية من التاريخ القديم بعصر المرأة قبل الإسلام ، كما يرى بعضهم أن هذا العصر لم يكن كله سوءاً بالنسبة لوضع المرأة ، ولم يكن كله شرًّا أو ظلاما ، وتؤكد هذا المعنى الكاتبة درية شفيق إذْ تقول : « إن الكتب السماوية قد اختارت بعض نسوة هذا العصر وتحدثت عنهن وعن العصر اللائى عشن فيه وقوة شخصية البعض منهن ، تلك التى تركت أعمق الأثر فى حياة هذه المجتمعات » .

ومن المؤكد أن درية شفيق تقصد بحديثها هذا . . المرأة خارج نطاق جغرافية العصر الجاهلى ، وأن ما تقصده هو عصر الملكة « بلقيس » التى ذَكَرَ القرآن الكريم قصتها مع سليمان ـ عليه السلام ـ والقصة معروفة ومذكورة فى كتب التفاسير العديدة ومع ذلك ووفقاً للأمانة وحتى تأخذ المرأة ما علينا لها من حقوق . . كان لابد لنا من التوقف عند هذه الفترة الزمنية التى حدثت بها معجزة المرأة بلقيس ، لا لشىء إلا من أجل إلقاء الضوء على أية فترة تاريخية قديمة عثرت فيها المرأة على حقها السياسى .

ويأتى ذكر القرآن الكريم لهذه المرأة دون الإفصاح عن اسمها فى الآية الكريمة التى يقول فيها الله تعالى ﴿ وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ﴾ صدق الله العظيم .

■■ بعيداً

عن حرارة الخيام

هذه القصة التى ارتبطت بامرأة من نوع غريب استوقفتنا كثيراً ، وربما أبعدتنا عن جو العصر الجاهلى الذى نحن بصدده ، برغم أن البلاد التى حكمتها تلك المرأة لا تبعد كثيراً من الناحية الجغرافية عن قلب شبه الجزيرة العربية ، إنها بلاد اليمن . هذا الخروج المؤقت سوف يبعدنا بالتالى عن نطاق الخيام المضروبة فى الصحراء ، ويجعلنا فى منأى عن حرارتها الشديدة . ومن أجل اللحاق بعصر الملكة « بلقيس » ، كان علينا أن نعود إلى الخلف فترات طويلة من الزمن ، ولم نجد أمامنا من سبيل للوصول إلى عصرها بأسرع وسيلة سوى اللجوء إلى عفريت سيدنا سليمان . وفعلاً . . ماهى إلا لحظات حتى كنا هناك نفتش عن هذه المرأة الأسطورة التى يعتبرها المؤرخون أول ملكة عربية .

● ● ●

كانت الملكة بلقيس التى ارتبط حكمها بفترة ظهور النبى سليمان تحكم بلاد اليمن بالشكل الديمقراطى الحديث القائم على نظام الشورى ، برغم أنها كانت امرأة مطلقة التصرف فى كل ما تقول به من أعمال ، حيث آمن الرجال بدورها السياسى ، وشعروا بما تقوم به من جلائل الأعمال ، الأمر الذى جعلها فى نظرهم أكثر استعداداً من أى فرد آخر للقيام بهذا الدور ، وبالتالى قيادتهم ، وكان ذلك فى أسمى صور الحكم المتمثل فى اعتلاء عرش بلاد اليمن .

ويؤكد لنا التاريخ من خلال رواياته المتعددة عن فترة حكم هذه الملكة أن هناك العديد من الدلائل القوية التى تشير إلى وجود مبدأ الشورى الذى نعده الآن قمة ديمقراطية العصر الحديث ، من هذه الدلائل أنها جمعت قومها كى تستشيرهم فى أمر الرد الواجب إرساله للنبى سليمان حين بعث إليها برسالته الشهيرة ، والتى ذكرها لنا القرآن الكريم .

ويصور لنا القرآن الكريم هذا الموقف حين جمعت بلقيس قومها ووقفت تخطب فيهم :

﴿ يأيها الملؤا أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾

[سورة النمل : الآية ٣٢]

وكان الجمع حاشداً والكل يستمع إليها ، ونظراً لاقتناعهم بدورها السياسى العظيم الذى تؤديه من أجلهم ، أجمعوا على تفويضها فى التصرف باسمهم ، واضعين أرواحهم رهن إشارتها قائلين :

﴿ نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ﴾

[سورة النمل : الآية ٣٣]

هذا الحوار الجميل الذى نقله إلينا القرآن الكريم يقدم لنا صوراً للديمقراطية فى أسمى معانيها ، ويصف لنا من خلال هذه القصة صفات رجال الملكة من حيث إنهم كانوا أقوياء متحضرين ؛ إذ لم يعترض رجل واحد من هؤلاء الرجال الأقوياء على تفويض امرأة رضوا بأنها تقودهم فى هذا الأمر السياسى الخطير الذى يتعلق بمصير أُمَّة بأكملها ، ولم يوجد بينهم من يعترض على أن تقوده امرأة ، بحجة أن تقاليد العرب آنذاك كانت تقف حائلاً بين المرأة وسياسة بلادها [١] .

إن هؤلاء القوم الذين يتنمون إلى المجتمع العربى ـ الذى يحاول البعض أن يلصق به عادات غريبة تتعلق بعلاقة الرجل بالمرأة ـ هم أنفسهم الذين وافقوا ـ وكما ذكرنا آنفاً ـ على رفع هذه الملكة المرأة على كرسى العرش فى اعتزاز وثقة ، مما يدل على أن عرب هذه الفترة الزمنية كانوا ينعمون بالحضارة وارتفاع مستوى الوعى السياسى لديهم بالنسبة للعصر الذى كانوا يعيشون فيه .

ومما لا شك فيه أن هذه الثقة التى أولاها شعب اليمن للملكة بلقيس ، قد دفعتها إلى الأمام خطوات وخطوات لتقديم المزيد من أجل شعبها . وحاولت من جانبها أن تتفوق على نفسها فى مجال تقديم الرعاية المطلوبة منها كملكة . . على شعب وثق بها

(١) درية شفيق ـ المصدر السابق .

وأعطاها لواء القيادة ، وحين نتمعن فيما كانت تقوم به هذه الملكة من أعمال نجدها قد تمثلت منهج « أرسطو » فى التفكير السياسى وأصول الحكم ، حيث رأت بفكرها الحضارى أن وظيفتها وهى فوق العرش أن توفر السعادة والخير لشعبها ، . ويبدو ذلك واضحاً من تصرفها الحكيم مع النبى سليمان ، حيث رأت ضرورة تجنيب شعبها ويلات الحروب والصدام المباشر والمسلح مع الملك سليمان وجيشه . لقد استطاعت أن تقف موقفاً سياسيا محنكاً تجاه القضية التى شغلتها حين وصلت إليها رسالة النبى سليمان ، ورأت ضرورة اختبار نوايا النبى سليمان أولاً قبل اتخاذ أى موقف سياسى ، حيث أرسلت إليه هدية ثمينة غالية ردًّا على رسالته حتى تكتشف ما إذا كانت أغراضه ونواياه تجاه بلادها مادية ، أم مجرد دعوة دينية لا تشوبها شائبة الطمع أو الاستعمار بمفهومنا الحديث .

لقد استطاعت بلقيس بهذا المسْلك السياسى المحنك أن تكسب النبى سليمان إلى جانبها ، وتهتدى إلى الحق الذى بَعَثَ من أجله رسالته ، بعدما عرفت بالنوايا الطيبة التى كانت وراء إرسال رسالته الشهيرة .

إن القرآن الكريم يصور لنا هذا التصرف الحكيم تصويراً جميلاً ، فيه تكريم عظيم للمرأة ، وإشادة بدورها السياسى

وحين نترك بلاد الملكة « بلقيس » . . ونعود إلى قلب الصحراء من جديد حيث مجتمع الخيام الذى هو محور حديثنا . . وقبيل الانخراط فى هذا المجتمع للبحث عن المرأة ودورها السياسى ، نتوقف قليلاً على أبواب مدينة « تدمر » السورية ، وعلى أبواب هذه المدينة تستوقفنا قصة الملكة زينب أو « زنوبيا » كما يحلو لبعض المؤرخين تسميتها ، وهى قصة نرويها ليس من أجل التسلية ، بل لأنها من صميم موضوعنا ، حيث إنها تؤكد دور المرأة السياسى فى بعض المجتمعات العربية .

لقد أثبتت الملكة « زنوبيا » أنها كانت ـ وكما تقول قصتها فى التاريخ ـ قادرة على قيادة شعبها والنهوض ببلادها بعد مقتل زوجها ، كما استطاعت إدارة سياسة هذا البلد

العربى وقيادته أثناء الحروب من أجل البقاء ضد الامبراطورية الرومانية ، واستطاعت بكفاحها العسكرى والسياسى أن توسع رقعة بلادها حتى امتدت إلى ما بين مجاهل إفريقيا ومعالم أنقرة !! .

وكانت من أهم صفات هذه الملكة قوة شخصيتها التى أهلتها للزعامة وسط شعبها ؛ وهى لذلك قد نالت احترام هذا الشعب وتقدير الخصوم .

وحين نبحث فى صفحات التاريخ عن أصل حكاية هذه الملكة نجد أن هناك خلافاً كبيراً بين المؤرخين حول اسمها ومكان دولتها ، فمنهم من يسميها الملكة « زينب» ومنهم من يطلق عليها الملكة « زنوبيا » ، وكما اختلفوا على الاسم ، اختلفوا كذلك فيما بينهم على شخصيتها وأسلوبها فى الحكم ، وطبيعة البلاد التى حكمتها .

ويشير إلى هذا الخلاف درويش الجميل فى مقاله المنشور باستراحة جريدة الأنباء الكويتية بتاريخ ٩/ ٣/ ١٩٨٩ تحت عنوان : « مسافر مع الأيام » ، فيقول : إن هذا الخلاف قد اشتد بين هؤلاء المؤرخين فيما يتعلق بمدة حكمها ، حيث يرى بعضهم أنها لم تحكم سوى أحد عشر عاماً ، ويرى آخرون أنها حكمت أكثر من هذه المدة . ويأتى على رأس هؤلاء المؤرخين ـ كما يشير درويش الجميل ـ المؤرخ « بول إيدر » وهو من المؤرخين المعاصرين الذين اشتركوا فى الحفريات التى جرت منذ عشرين عاماً بحثاً عن العاصمة الحقيقية لهذه المملكة العظيمة . . ومن كلمات هذا المؤرخ قوله : إن العاصمة القديمة للدولة التى أنشأتها الملكة « زنوبيا » عَفَّى عليها الزمن تماماً ، ولم يبق منها غير آثار ملموسة ، ولكنها آثار تحكى بأبلغ لسان عن حضارة دولة « بالميرا » القديمة . . إن مدينة « بالميرا » كانت عاصمة الدولة التى أنشاها الملك « أذونية » زوج الملكة زنوبيا ، ثم ورثتها عنه أرملته الشابة . « وبالميرا » هذه تقع بالقرب من مدينة تدمر الحالية . وموقعها الجغرافى على بعد ٢٣٠ كيلو متراً من دمشق .

لقد خاضت دولة تدمر العربية بقيادة الملكة « زنوبيا » عدة صراعات محلية وإقليمية، كان أشهرها مع كل من الامبراطوريتين القائمتين آنذاك . . الفرس

والروم . . أن كُلاًّ منهما تحاول احتلال دولة تدمر العربية ، ولكن جيش الملكة «زنوبيا» قد استطاع الحفاظ على استقلال البلاد وحرية أهلها

ولم تسلم الملكة « زنوبيا » من المؤرخين ، حيث لم يتركوها فى حالها ، بل خاضوا فى حياتها الخاصة حيث وصفها لنا المؤرخ الرومانى الجرىء « تريبلوس بوليون » بقوله : «كانت زنوبيا أنبل ملكات الشرق قاطبة ، وأجملهن أيضاً . كانت بيضاء البشرة مشربة بالحمرة ، لها عينان سوداوان لا يثبت أمام لحظهما الساحر الجذاب أعتى الرجال وأشدهم غلظة . . وكان صوتها صافياً واضح النبرات ، وإنْ مال قليلاً إلى جرس الرجولة . . ويحاول هذا المؤرخ أن يؤكد أن الملكة « زينب » العربية ـ أو زنوبيا ـ قد عاصرت الملكة المصرية « كليوبترا » ، بل أكد أنه كانت بينهما رسائل متبادلة !! . وهو ينهى حديثه عنها بقوله : لقد كانت بحق ملكة أسطورية ، عربية الأصل ، وكانت تتمسك باسمها العربى « زينب » برغم إصرار بعض المؤرخين على تسميتها بالملكة «زنوبيا » .

■■ المرأة العربية

ومجتمع البادية

يسكن أهل البادية الخيام المصنوعة من الوبر غالباً ، أو الدور المشيدة من الأغصان الجافة أو من جذوع النخل وجريدها ، وتقوم معيشتهم على رعى الإبل والأغنام وعلى ما تنتجه بعض سهولهم من البلح والزيتون والشعير . . وقد كانوا فى شبه انقطاع عن سائر الجزيرة العربية والممالك المجاورة(٢).

عاشت المرأة فى تلك البيئة الصحراوية القاحلة عيشة قاسية ، وكانت تقوم ببعض الأعمال البدائية وهى فى سن صغيرة ، كرعى الأغنام ونحوها ، ثم كانت تؤدى دورها كزوجة وأم وتقوم برعاية أبنائها وزوجها ... إلخ .

وبرغم أن حياة الغالبية منهن كانت تتصف بالخشونة والقسوة فإن بعض النسوة

---

(٢) سلسلة اقرأ ـ العدد ٣١٣ .

الحرائر من سادة العرب كُنَّ يحصلن على بعض الحقوق ، ولكن فى أضيق الحدود . .

إن المرأة فى تلك البيئة لم تكن تملك حق الحياة داخل هذه المجتمعات ، حيث كانوا يسارعون فى وأْد البنات حين يولدن ودفنهن أحياء . . ذلك خشية الفقر أو دفعاً للعار الذى تجلبه عليهم تلك المولودة إذا ما كبرت وأُخذت أسيرة فى الحرب . . التى كانت كثيراً ما تشتعل بين تلك القبائل ؛ ولذا يصف لنا التاريخ كيف كان الحزن يخيم على بيوت القبيلة حين يعلم الأب أن المولود بنت !! .

وكانت الطريقة السائدة آنذاك فى وأد البنات والتخلص منهن . . أن يسارع الأب فى الأيام الأخيرة التى ينتظر فيها المولود بحفر حفرة عميقة بجانب الموضع الذى تقيم فيه الأم الحامل ، وحين يكتشف أنها أُنثى يقذف بها حية ويهيل عليها التراب .

وقد صور لنا القرآن الكريم هذه التقاليد العجيبة التى كان يتمسك بها الجاهليون أحسن تصوير قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٣)

(صدق الله العظيم) .

ويرى بعض المؤرخين العرب والأجانب أن الدوافع التى كانت تجبر رجل البادية على ارتكاب هذه الجريمة البشعة ـ بجانب التقاليد البالية ، والفقر ، والحاجة ، والرغبة فى التخلص من واجب التربية ـ كانت ترجع إلى أسباب دينية ووثنية خاطئة ؛ إذ كانوا يرون أن البنت ما هى إلا رجس من الشيطان يجب التخلص منه .

وإذا سلمنا برأى هؤلاء الذين يقولون بتمتع المرأة العربية فى العصر الجاهلى ببعض حقوقها ، خصوصاً النسوة الحرائر ، فإنها كانت حقوقاً مطموسة المعالم ، وغير معترف بها من الرجال ، بل كانت بعض النسوة يغتصبن هذا الحق بقوة الشخصية ، وما يتمتعن به من نبوغ ذاتى يتمثل فى قول الشعر ، وطلاقة اللسان .

---

(٣) سورة النحل ـ الآيتان : ٥٨ ـ ٥٩ .

وفى بعض الفترات كانت المرأة تحاول أن يكون لها دور فى الحياة العامة ، ولو من خلف الستار ، برغم اعترافها بحياة العبودية التى كانت تتخذ أشكالاً متعددة تبعاً للظروف الاجتماعية ، والاقتصادية ، والبيئية .

من ذلك كله يتضح لنا أن المرأة العربية فى ذلك العصر ، والتى كانت تعيش فى البادية ، كانت رهينة عوامل التقدم والتأخر . مما يوحى بعدم وجود قاعدة ثابتة لتحرير مكانتها على خريطة الحياة العامة والحياة السياسية قبل الإسلام . وهكذا قضت حياتها تقترب حيناً من الحياة العامة وتبتعد أحايين كثيرة . وظلت هكذا حتى بزوغ فجر الإسلام .

■■ الإسلام وحقوق المرأة السياسية

وإذا ما حاولنا الحديث عن الدعوة الإسلامية ، وعن الرسالة السماوية السمحة التى نزلت على قلب رسول الله سيدنا محمد ، عليه الصلاة السلام ـ وبنزولها نقلت أرض الجزيرة العربية ومن فيها من الظلمات إلى النور ـ لا يسعنا مثل هذا الكتاب أو غيره ، وأيضاً لو حاولنا الحديث عن المرأة فى الإسلام وحقوقها ، لضاقت علينا هذه المساحة من الورق ، وقد عالجه وتناوله غيرنا من الأساتذة الأجلاء ، والمتخصصين فى الفقه والشريعة الإسلامية ، وأفردوا له الكتب والمجلات . ولكن الذى يهمنا هنا هو تناول الحقوق السياسية للمرأة فى الإسلام ، وكيف نظر إليها المُشَـرِّع .

وقبل الخوض للبحث عن هذه الحقوق نلاحظ أن الدين الإسلامى قد أقر هذه الحقوق ، وفتح أمام المرأة الباب كى تشارك الرجل فى الحياة والشئون العامة والإدارة ، بل أجاز لها تولية منصب القاضى ، ولكن هل يحق لها أن تكون زعيمة سياسية وقائدة ورئيس وزراء ورئيس جمهورية ؟ ! هذا ما سوف نناقشه ونتعرف عليه .

● ● ●

وقع اختيارنا كى نبدأ رحلتنا عبر طريق طويل لإثبات حق المرأة المسلمة فى الحقوق السياسية ، على رأى هام للشيخ محمود شلتوت ، شيخ الجامع الأزهر الأسبق ،

جاء فى كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » : أنه إذا كانت المرأة مسئولة مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها فهى فى نظر الإسلام مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والإرشاد إلى الفضائل . . إن هذه المسئولية تعد فى نظر الإسلام أكبر مسئولية بصريح الآيات

ونحن نربط بين ماقاله الشيخ شلتوت ، وبين ما ذكره الفيلسوبف اليونانى «أرسطو» فيما ذهب إليه من تعريف صريح لأهداف العمل السياسى ، إذ يرى أن أسمى غايات العمل السياسى التى يقوم بها الحاكم هو تحقيق السعادة والفضيلة لشعبه ، ومادام الإسلام قد أقر المساواة فى تحمل المسئولية من أجل تحقيق الخير للناس ، فإذن لا فرق فى هذه المسئولية ـ كما أكد الشيخ شلتوت نفسه ـ بين الرجل المرأة . وينطبق هذا الحديث بلا تحديد على تحمل المسئولية السياسية ، ولا فرق أيضاً فى تحملها بين الرجل والمرأة .

وليس هذا الرأى هو التأكيد أو البرهان الوحيد على إقرار الحقوق السياسية للمرأة . . بل سوف نحاول أن نذكر العديد منها على سبيل إحقاق الحق .

إن إنصاف الإسلام للمرأة بتقرير حقوقها والدفاع عن آدميتها وأهليتها يهدف إلى غايتين ، هما : إحقاق الحق الذى يقوم عليه منح هذه الحقوق للمرأة من ناحية ، والعمل على رفع مستوى الأمة الإسلامية وحمايتها وتأكيد تحضرها عن طريق رفع مستوى النساء المعنوى والقانونى والأدبى من ناحية أخرى (٤).

وكما أسلفنا وأكدنا عليه ، نرى أن وضع المرأة داخل المجتمعات القديمة والحديثة قد ارتبط بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، كما ارتبط أيضاً بالظروف والأحوال الدينية ، وانتشار الإسلام الذى أقر احترامها ، هذا الاحترام كان له أكبر الأثر فى استعادة المرأة العربية لكيانها داخل الدولة الإسلامية ، حتى فى أيام الدعوة الإسلامية الأولى التى حمل لواءها الرسول ﷺ ، وأيام الخلفاء الراشدين ، وإن بدا ذلك على

(٤) درية شفيق ـ المصدر السابق .

استحياء لبداية التجربة الوليدة ، وتأثير أيام الظلام الأسود الذى كانت تقبع خلفه امرأة عصر الجاهلية . هذه البداية تجلت تماماً ـ وبشكل يثير الدهشة ـ أيام الخليفة عمر بين الخطاب حين عارضته امرأة ، وأقر تلك المعارضة واعترف بها حين قال قولته المشهورة : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

واستمرت المرأة بعد ذلك تواصل إثبات وجودها داخل المجتمع الإسلامى وشاركت بقوة فى الحياة العامة ، بل وساهمت فى نشر الدعوة أيضاً ، ويؤكد على هذا المعنى الدكتور مصطفى الشكعة بقوله : « لقد حرر الإسلام المرأة أولاً ، ثم أقر مكانتها الحقيقية ، فأدت دورها بأكمل وجه ، وأسهمت بجهدها قولاً وفكراً ، وعملاً وتطبيقاً، وحاربت وحاجَّتْ وشعرت وخطبت ، وواجهت الخلفاء والملوك بالقول الساطع والبيان الواضح . لقد كان للإسلام أثر طيب فى حياة المرأة ، حيث حولها من مجرد أنثى تنوح وتبكى إلى إنسان كريم يعتبر ويضحى ويقدم خدماته للإنسانية وفداء لعقيدته ، ويكفينا مثالاً على ذلك عقد مقارنة سريعة بين المرأة فى الجاهلية والإسلام»(٥).

ووسط هذه التأكيدات الصريحة من جانب الإسلام قولاً وعملا . . تجد من يخرج عليك بالأقاويل التى تناهض هذا الحق . . وتنكره على المرأة بدون أسانيد شرعية قوية يقدمونها دليلاً على إنكارهم لهذا الحق ، ولكن أغلبهم ـ وللأسف ـ يفسرون آيات كتاب الله على هواهم ؛ خدمة لمصالحهم الشخصية ومصالح الحكام الذين يمثلونهم! .

إن مصدرى التشريع الأساسيين ـ وهما القرآن والسنة ـ ليس بهما نص واحد صريح يمنع مزاولة المرأة للسياسة ودخولها فى ميدان السياسة، وإن كان هناك بعض الفقهاء المعارضين لعمل المرأة بالسياسة يتمسكون بحديث الرسول ﷺ ، الذى يقول فيه : « خاب قومٌ ولَّوْا أمرهم امرأة » . ونحن نقف موقف الحياد تجاه تفسير هذا الحديث وتوقيته . . حيث يؤكد أغلب المفسرين والمهتمين بالسيرة النبوية والأحاديث

---

(٥) د . مصطفى الشكعة ـ المصدر السابق .

الصحيحة المروية أن أصحاب الرسول الكريم قال بعضهم إنهم سمعوا هذا الحديث من الرسول ﷺ حين بلغه وهو فى إحدى الغزوات ضد الفرس أنهم سمحوا لابنة كسرى أن تقودهم وتتولى أمر قيادتهم .

ولا شك أن هناك خلافاً واضحاً بين أغلب فقهاء المسلمين حول هذا الحديث ، وبيان وتوقيت قوله ، والمناسبة التى ارتبطت به ، بل منهم من شكك فى صحته ، ولكن ـ وللأسف ـ هذا الحديث قد وجد أرضاً خصبة داخل عقول بعض الفقهاء المتأخرين علماً وفهماً ، وربطوا بينه وبين القول الذى شاع بينهم آنذاك بأن المرأة لا تصلح لأمور الولاية ! . مع أنه ـ كما أكدنا ـ ليس هناك دليل واضح غير هذا الحديث فى القرآن والسنة يدل على رأيهم . وقد سبق أن وضَّحْنَا ما توصل إليه الشيخ شلتوت ، شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، من أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أكبر مسئوليات المسلم ، وقد تساوى فى تحمل هذه المسئولية الرجل والمرأة على السواء . وقد استند الشيخ شلتوت فى قوله هذا إلى الآية الكريمة التى تقول :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٦) .

(صدق الله العظيم ﴾ .

إن المعنى العام لهذه الآية صريح ، وهو أن الولاية العامة فى شئون الناس تقع على عاتق الرجل والمرأة ، سواءً بسواء . ولعله دليل قوى على جواز مزاولة المرأة لحقوقها السياسية . وبالتالى يحق لها أن تقود وتتزعم شعبها وتتولى أرفع المناصب السياسية من أجل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويأتينا الرأى الحاسم فى هذه القضية أيضاً من أحد العلماء المسلمين والمفكرين المستنيرين، إنه الشيخ محمد الغزالى . . الذى أكد على هذا المعنى فى كتابه « السنة

---

(٦) سورة التوبة ـ الآية : ٧١

النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » ثم أكده من جديد فى أحد أحاديثه الصحفية التى أُجريت معه مؤخراً ، ونُشر فى مجلة « نصف الدنيا » ، ونحن ننقل هنا نص هذا الحديث فيما يتعلق برؤيته الخاصة لتولى المرأة أمر القيادة . . ودخولها الملعب السياسى .

يقول الشيخ الغزالى بالحرف الواحد رداً على السؤال : أَمَا زلتم عند رأيكم المذكور فى كتاب السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث الذى يجيز أن تتولى المرأة الحكم . . على الرغم من احتجاج معارضيك ؟ ! .

يجيب الشيخ الغزالى : نعم يجوز أن تتولى المرأة المسلمة رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء . فمسألة ولاية المرأة للحكم ليست من اختراعى ، وإنما قال بها من قبل عدد من الأئمة ، من بينهم ابن حزم ، وابن جرير الطبرى . فقد رأوا أنها يمكن أن تكون حاكمة أو قاضية ، لكنهم اتفقوا على أنه لا يجوز أن تكون المرأة خليفة للمسلمين . أما فى نواحى الحكم الأخرى ، فلا بأس أن تكون مثل تاتشر رئيس وزراء بريطانيا ، أو مثل ملكة بريطانيا . فقد حدثنا القرآن الكريم من قبل عن ملكة سبأ .

هذا ما أ قوله ـ والكلام لا يزال لشيخنا الجليل محمد الغزالى ـ ولا أرى فيه جرأة ، فليس فى كتابى الأخير ما يوصف بالجرأة .

أما ما نريد تأكيده بصوت مرتفع فهو أن الدين الإسلامى العظيم لم يمانع قط فى حصول المرأة على حقوقها السياسية وممارسة هذه الحقوق ، بل لم يمانع فى أن تكون المرأة زعيمة سياسية ، أو نائبة ، أو ناخبة ، أو حتى رئيس وزراء ، أو رئيس جمهورية بالمعنى الحديث للمنصب السياسى . وَلِمَ لا . . وقد أباح لها الحق تولى أمور القضاء مهما كان نوع هذا القضاء ؟ .

ويرى العديد من المؤرخين والفقهاء أن تولى المرأة لمنصب القاضى هو أخطر من توليها منصب الزعامة السياسية ؛ لأن القضاء يرتبط بقول العدل . فإذا كانت المرأة ـ بتصريح صريح من الإسلام ـ يمكن أن تتولى شئون القضاء كى تحكم بين الناس بالعدل . . أفلا يجوز لها أن تتولى أمور الزعامة السياسية وهى أقل خطراً ومسئولية أمام الله والناس ؟ !

إن حق تولى القضاء بالنسبة للمرأة فى الإسلام أكده العديد من الفقهاء القدامى والمحدثين ، وعلى رأسهم الإمام أبو حنيفة ، حيث جاء فى فتواه : إن قضاء المرأة جائز فى كل شىء إلا فى الحدود والقصاص ، اعتبارا بشهادتها » .

والتاريخ الإسلامى ـ بما فيه من مادة خصبة وحيوية ـ يوضح لنا أن المرأة فى العصر الإسلامى الأول كانت مشاركة بقوة فى الأحداث السياسية التى ارتبطت آنذاك بنشوء الدولة الإسلامية الأولى ، أو الجمهورية الإسلامية الأولى إن جاز هذا التعبير ، ليس على سبيل القول والمعارضة ، بل أقول على طريق المشاركة السياسية الفعلية . ولسوف نتوقف كثيراً عند السيدة عائشة أم المؤمنين ودورها السياسى كنموذج للزعامة السياسية فى مجال السياسة بالنسبة للمرأة المسلمة .

■■ أول زعيمة سياسية فى الإسلام

تقود أتباعها .. بحثاً عن الحقيقة

حين نتطرق إلى الحديث عن الدور السياسى الخطير الذى لعبته السيدة عائشة أم المؤمنين وزوجة الرسول ، ﷺ ، نحاول أن نتعرف على معالم الطريق الذى سلكته وسطرت من خلاله أعظم أدوار المرأة السياسية التى عاشت فى ظلام الجاهلية قروناً طويلة .

إن المرأة الإسلامية قد شاركت بدور كبير ليس فى مجال الدعوة الإسلامية والوقوف خلف القائد العظيم الرسول ﷺ ، وليس فى مجال الغزوات والحروب من أجل الحفاظ على الدين الجديد فقط ، بل نزلت إلى الملعب السياسى بقوة ، وإن لها دورها الذى سجله التاريخ ، هذا الدور كان امتداداً لدور المرأة الإسلامية التى عارضت الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، وقد اعترف الخليفة بهذا الدور .

● ● ●

لقد تجلى الموقف السياسى للسيدة عائشة أم المؤمنين حين عارضت تولى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه خلافة المسلمين بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ليس هذا فقط بل امتد دورها السياسى إلى ضرورة البحث عن قتلة

الخليفة وضبطهم ؛ لأنها رأت أنه قد مات مقتولاً مظلوماً ، ومن واجبها وواجب غيرها من المسلمين والمسلمات البحث عن هؤلاء الذين تسببوا فى زعزعة الاستقرار السياسى للدولة الإسلامية ، أولاً وقبل اختيار الخليفة الجديد .

وحتى نقف على هذا الدور السياسى لأول زعيمة سياسية فى الإسلام ، لابد لنا من الحديث عن الظروف السياسية التى مرت بها الدولة الإسلامية الأولى آنذاك ، ومن بعده نعرج بحديثنا هذا على شخصية هذه المجاهدة الإسلامية الكبيرة ، أُم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق والخليفة الأول للمسلمين .

يقول الدكتور مصطفى الشكعة صاحب كتاب « إسلام بلا مذاهب » فى تصويره الوضع السياسى للدولة الإسلامية فى هذه الفترة : كانت العقيدة الإسلامية تكمن فى قلوب المسلمين فى صفاء ويسر واعتزاز وإيمان حين انتقل الرسولﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وبموته حاولت الفتنة أن تطل برأسها فى صورة خلاف على الزعامة ، واتخذ الخلاف صورة جدية أول الأمر بين المهاجرين والأنصار ، ولكن سماحة هذا الدين وعمق جذوره فى قلوب المؤمنين والبعد عن المطامع الذاتية ، كل ذلك قد ساعد على وأد الخلاف حينما اعترف المهاجرون بفضل الأنصار ، ورددوا رأى رسول الله ﷺ حين يقوم زعيم الأنصار سعد بن عبادة ويقول عن رضًا وإيمان موجهاً خطابه للمهاجرين : نحن الوزراء وأنتم الأمراء ، وتنطفىء الفتنة التى أوشكت أن تندلع بأيسر ما يتصور العقل المفكر برضا الأنصار بأن تكون الإمارة فى المهاجرين .

وأما فى صفوف المهاجرين فإنا نلمس الإيثار فى البيعة والاختيار ، فهذا عمر بن الخطاب العظيم يتلفت إلى أبى عبيدة بن الجراح يقول له : أبسط يدك أُبايعك فأنت أمين هذه الأُمَّة على لسان رسول ﷺ ، فلا يستبشر أبو عبيدة ، لا يرحب ببيعة عمر له ، ولا يتحمس لأخطر منصب عرفه الإسلام بعد الرسالة ، و يعرض أبو عبيدة عن عمر وعن المنصب الذى يبايعه عليه ، منصب خليفة رسول الله ، بل يقول له فى حزم وإيمان ورضا : أتبايعنى وفيكم الصِّدِّيق وثانى اثنين ، فيقتنع عمر ويذهب إلى أبى بكر

قائلاً : أبسط يدك أبايعك ، أنت أفضل منى . . فيقول أبو بكر : إنِّى ضعيف وأنت أقوى منى ، فيقول عمر : إن قوتى لك مع فضلك . وتتم البيعة لأبى بكر خليفة الرسول العظيم . وتُقَابَلُ بيعة أبى بكر بالرضا من المهاجرين والأنصار على السواء .

فإذا مات أبو بكر لا يلبث المسلمون جميعاً أن يرتضوا مشورته قبل وفاته باختيار الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ، ومن بينهم على بن أبى طالب ، وكان الخليفة يستعين به فى حل عظائم الأمور . ويظل أمر المسلمين هادئاً حتى يحدث الشقاق إزاء سياسة عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، وتنتهى الأمور بمأساة قتله ، فبايع أكثر المسلمين « على بن أبى طالب» الخليفة الرابع للمؤمنين ، ولكن شبح الأطماع الشخصية وبقايا العصبية القبلية تطل برأسها لأول مرة فى الإسلام ، فينقسم المسلمون قسمين أو حزبين : حزب ينتصر لعلى ، وحزب ينتصر لمعاوية . ويستشرى الخلاف بين أنصار الحزبين ويجرى التحكيم المعروف الذى كان بطلاه أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، فلا يرضى به جناح من حزب علىّ فيخرجون عليه ويُكَوِّنُون حزباً ثالثاً عرف تاريخيًّا باسم الخوارج . وفى هذا الجو المضطرب سياسياً برزت السيدة عائشة أُم المؤمنين ، وأبت إلا أن تقول رأيها فى هذه الأحداث السياسية العظيمة التى شكلت منعطفاً جديداً داخل الدولة الإسلامية

وقبل الخوض فى سرد تفاصيل هذا الدور الذى قامت به السيدة عائشة أُمُّ المؤمنين ، رأينا أن نتحدث قليلاً عن صفات هذه الزعيمة وملامحها الشخصية ، من حيث أصلها ونسبها وزواجها من الرسول ﷺ ، إيماناً منا بأن الأعمال العظيمة فى حياة البشر لا تأتى أبداً من فراغ ، خاصة ما هو متعلق بالزعماء السياسيين . ويشكل جانباً كبيراً من سمات هذه الشخصيات . . الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العامة التى تعيشها الشخصية ، بالإضافة إلى ما تختزنه هذه الشخصية من خبرات سابقة ومواقف تظهر معدنها وقدراتها .

يقول الملف الشخصى للسيدة عائشة أم المؤمنين : إنها إحدى أُمهات المؤمنات اللائى نَوَّه عنهن القرآن الكريم ، وارتبط دورها آنذاك بنسبها ، حيث كانت إحدى بنات أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، ابن أبى قحافة ، من أعلام قريش ، وأمها «أم رومان » بنت عامر بن عويمر الكنانية (٧) ، كما ارتبط هذا الدور بزواجها من سيد الخلق ، سيدنا محمد ، ﷺ .

وعن مولدها تقول أوراق التاريخ داخل ملفها الشخصى . . إنها ولدت سنة أربع بعد البعثة وتزوجها الرسول الكريم فى العام الثالث من انتقال زوجه الأولى السيدة خديجة ، وكان صداقها حين ذاك أربعمائة درهم . وكانت السيدة عائشة أحب زوجات رسوال الله إليه ، وكان يلقبها « بالحُميراء » كما كان من دواعى سروره ﷺ أن يرضيها ويعمل ما فيه سرورها ، حتى ازدادت مكانتها فى قلبه الطاهر .

أما عن ملامحها الشخصية فيصفها لنا التاريخ بقوله : إنها كانت أعلم النساء المؤمنات ببواطن الأمور ، وكثيراً ما كانت تشارك بالرأى فى علاج أخطر الأمور التى تعترض الدعوة الإسلامية ، وتعالجها من خلال ارتباط رؤيتها برؤية زوجها الرسول ﷺ . كما كانت تمتاز بحسن المنطق والتفقه فى الدين ، واستطاعت أن تروى أكثر من ألف حديث صحيح ؛ ولذا كثيراً ما كان يقصدها الرجال بعد وفاة الرسول ، ﷺ ليسألوها فى العلم فتفتيهم فيه .

وحين نتطرق إلى الحديث عن موقفها السياسى آنذاك من البيعة والخلافة لعلى بن أبى طالب . . علينا أن نبحث فى أمهات الكتب عن أصل هذا الموقف السياسى العظيم . . وللحق وجدنا أن خير تصوير له قد نقله إلينا الأديب الراحل عبد الرحمن الشرقاوى فى كتابه « على إمام المتقين » ، ولم يكن ثمة خلاف حول طبيعة وتفاصيل هذا الموقف السياسى الكبير . وإن كان الخلاف فى الرواية مع تقديم أو تأخير لفظ أو كلمات .

---

(٧) المسلمات الأوائل ـ د . إسماعيل حلمى .

أما الملاحظة الأخرى التى رأيت ضرورة ذكرها لما لها من أهمية داخل نفسى . . فهى أن أغلب الذين تناولوا هذه الحادثة أو هذا الموقف لم يصنفوه سياسياً أو يعلقوا عليه مع أنه بالنسبة للفقهاء والدارسين للتاريخ السياسى كان من الممكن أن يعطيهم البداية الحقيقية التى كانت عليها المرأة المسلمة فى داخل الملعب السياسى . إذ رأوا ودرسوا وشاهدوا كيف كان للمرأة المسلمة الرأى والمشورة سواء بالموافقة أو بالمعارضة فى تولى أمور الخلافة ، . وهو قمة الاختيار السياسى آنذاك . إن ما نريد أن نشير إليه هو موقف السيدة عائشة أم المؤمنين فيما يتعلق بما سُمى فى التاريخ « بواقعة الجمل » .

يقول عبد الرحمن الشرقاوى : إن أم المؤمنين عائشة ،رضى الله عنها ، كانت بمكة حين اغتيل الخليفة عثمان بن عفان ، حيث فرغت من الحج ، ومعها بعض أمهات المؤمنين ، وكُنَّ فى انتظار أن يعتمرن فى أول المحرم ، ولكن أنباء مشوشة وصلت إليها عن مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، والبيعة لطلحة ! . وعلى الفور أسرعت إلى المدينة المنورة ، ولم يكد ركبها يقطع عدة أميال فى الطريق إلى المدينة حتى جاءها الخبر اليقين وتفاصيله بقتل عثمان بن عفان ، وأن عليا بن أبى طالب هو الذى بُويع بالخلافة . حينئذ أمرت ركبها بالعودة إلى مكة من جديد ، وحين بلغتها أعلنت عن مقتل عثمان وقالت قولتها المشهورة : « قد قتل عثمان والله مظلوماً والله لأطلبن بدمه » . ثم ذهبت إلى البيت الحرام واعتصمت به هناك خلف الحجر الأسود ، وشاع الخبر فى الناس فالتفوا حولها وهى تصف لهم الحادث بقولها : « إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه والبدو والأعراب وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام » . وقد اقتنع المجتمعون حولها برأيها كزعيمة سياسية ، وازداد عددهم بين الحين والآخر حتى وصل إلى أكثر من ثلاثين ألف رجل على رأسهم طلحة والزبير بن العوام .

وحين علم على بن أبى طالب ، وهو حينئذٍ فى المدينة عاصمة الدولة الإسلامية، قام وخطب فى الناس وأعلمهم بما هو حادث بمكة . وقبل أن يقرر مواجهته لمعارضة السيدة عائشة كان تفكيره ينصب على ما يحدث فى الشام تحت قيادة معاوية الذى

رفض البيعة له ، وحين وصل الخبر إلى الزعيمة السياسية السيدة عائشة قررت أن تزحف بمن معها من أنصارها ناحية البصرة بدلاً من المدينة ، لملاقاة جيش على بن أبى طالب هناك وتأكيد معارضتها لا ختياره ، وضرورة البحث عن قتلة الخليفة المظلوم .

لم تفلح محاولات على بن أبى طالب لاحتواء أزمة المعارضة هذه ، التى كانت تقودها السيدة عائشة ، حيث نادى المنادى التابع لها بأن « أم المؤمنين شاخصة إلى البصرة ، فمن أراد إعزاز الإسلام بقتال الذين استحلوا الدم والطلب بثأر عثمان ، وليس له مركب ولا جهاز فيأت » . وعلى الفور انطلق ركب المعارضين إلى البصرة، وأم المؤمنين عائشة فى هودج على جمل ضخم من حديد ودروع وجعلوا فيه موضعاً لعينها .

وبرغم أن الإمام على بن أبى طالب ـ كما يقول عبد الرحمن الشرقاوى ـ لم يصدق أن السيدة عائشة خرجت لقتاله ناحية البصرة ، إلا أنه خرج فى إثرها مسرعاً يحاول إقناعها بعدم الخروج والقتال ، ولكنه لم يدرك هذا الركب ، وبالتالى اضطر أن يلحق بها وبجيشها هناك على رأس جيش كبير من أتباعه .

وخارج حدود المدينة أقامت السيدة عائشة ومن معها ، وبدأت فى إجراء الاتصالات برجال القبائل الذين أتوا للانضمام إليها ، وهى فى كل مرة تؤكد لهم أن الهدف من حملتها هذه هو البحث عن قَتَلَة الخليفة المظلوم ، ومعارضة بيعة على بن أبى طالب .

وتدخلت ظروف كثيرة أدت إلى الالتحام بين الجيشين فى موقعة الجمل ، حيث تمكن جيش على بن أبى طالب من جيش المعارضين ووقعت السيدة عائشة فى الأسر بعد مقتل الجمل الذى كانت تركبه بسيوف وسهام أتباع الإمام على . ومن أرض المعركة توجهت بعد الهزيمة إلى أحد بيوتات البصرة تقيم فيه لحين العودة . وبرغم مكانة السيدة عائشة آنذاك كزعيمة سياسية فإنها لم تغادر أرض البصرة إلا بعد أن سارت على قدميها وسط أرض المعركة وشاهدت أشلاء قتلاها . وحين اقتنعت بسلامة البيعة والخلافة قدمت تأييدها لعلى بن أبى طالب ضد معاوية بن أبى سفيان . وهكذا فعل كل تابعيها من المعارضين إلا القلة القليلة التى انضمت إلى حزب معاوية وظلت على موقفها المعارض من اختيار على بن أبى طالب وخلافته .

ومن بعدها عادت السيدة عائشة من جديد إلى المدينة بعد أن كرَّمها الإمام على وأقامت بالمدينة إلى يوم وفاتها فى الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان ، ودفنت بالبقيع كما أوصت . وكان ذلك فى العام الثامن والخمسين من الهجرة .

■■ عَـوْدٌ إلى الوراء

يبدو أن النشاط السياسى القوى للمرأة الإسلامية الذى بَدَا جليًّا أيام الدولة الإسلامية الأولى وتبلور بصورة رائعة على أحسن ما تكون عليه الممارسة السياسية ، فى موقف السيدة عائشة أم المؤمنين ، ومن قبلها موقف المرأة التى عارضت عمر بن الخطاب . . هذا النشاط عَدَّه معاوية ـ الذى دان له الحكم عقب الفتنة الكبرى وكل من تلاه من الحكام المسلمين ـ خطرًا لابد من مقاومته والقضاء عليه ؛ لذلك وضعوا المرأة فى حساباتهم ، وبدأوا يفكرون فى إعادتها من جديد إلى الخيام وإنهاء دورها السياسى على وجه السرعة . وقد نجحوا فيما خططوا له نجاحاً باهراً ، واختفت المرأة من جديد من على المسرح السياسى ، وتم حبسها مرة أخرى خلف الجدران الملساء .

ازداد موقف المرأة المسلمة غموضاً فى عصر بنى أمية ، وابتعدت بدورها عن المجالات العامة ، خلافاً لما نادى به الإسلام ، ويختلف المؤرخون فى مدى الحرية التى نالتها المرأة خلال هذا العصر ، البعض يرى أن الغالبية منهن كُنَّ مغلوبات على أمرهن ، ومن ثم أُجبرت المرأة على التقهقر من جديد حيث قبعت فى زاويا منزلها تدرس العلوم الدينية مفضلة الانزواء فى دارها ؛ لذا نجد هؤلاء المؤرخين يذكرون أن أهم سمات هذا العصر هو ظهور الفتيات الحسان والقيان والجوارى (٨) .

وقد امتد وضع المرأة بهذا الشكل وبهذه الصفات خلال العصر العباسى حيث كثر اقتناء الجوارى والقيان ، مما حدا بالمرأة أن تلجأ إلى مزيد من التزين والتبرج لمحاولة إظهار المفاتن والجمال حتى تكون مرغوبة لدى الرجال .

ويرجع ذلك إلى أن الغالبية العظمى من المسلمين قد ابتعدوا عن تعاليم الدين الإسلامى السمح وما نادى به بخصوص المرأة . . الأمر الذى جعل أغلبهم يسارع

(٨) تطور المرأة عبر التاريخ ـ باسمة الكيال .

من أجل إخراج المرأة من الملعب السياسى كلية ، ونسبرا الكثير من الخرافات المتعلقة بالمرأة إلى الإسلام (٩) .

وقد صاحب هذا التدهور الشديد فى وضع المرأة المسلمة بشكل عام ، ظهور الحجاب من جديد ، وانتشاره على وجوه كافة النساء ، خاصة فى العصر العباسى ، الذى اقتصر فيه على النساء الحرائر فقط ! . ثم سرعان ما أصبح نظام الحجاب تقليداً ثابتاً لا يحيد عنه الناس ، بل يطبقونه بصورة ثابتة .

ويذكر التاريخ الإسلامى أن أول من حمل لواء الدعوة لعودة الحجاب خلال العصر العباسى وما تلاه من العصور هو « ابن المقفع » وشيئاً فشيئاً أصبح الحجاب نظاماً اجتماعيًّا عامًّا (١٠).

وبرغم أن الحجاب حين فرضه الإسلام خص به أمهات المؤمنين زوجات الرسول ﷺ . وحتى لو فرض الحجاب على كل المسلمات من النساء ، فليس معناه أن تحجب المرأة عن المشاركة فى الحياة العامة ، وبالتالى تفقد حقوقها السياسية . وفى رأينا الشخصى أنه حتى ولو لبست المرأة فى عصرنا الحديث الحجاب فلن يكون أبداً حائلاً أمامها للمشاركة فى الحياة العامة والسياسية .

إن المرأة حين تنخرط فى الأعمال الهامة وعلى رأسها اتخاذ القرارات السياسية فإنها بالطبع تبتعد بمفاتنها عن مجال هذه الأعمال ، وتحاول أن تكون ملتزمة ليس فى ملبسها فقط ، بل وفى حديثها وكافة ألوان السلوك ؛ لأنه يصبح شاغلها الأول إثبات مكانتها ووجودها فى المجال السياسى .

ونعود إلى حديث التاريخ لنفتش عن المرأة بعد العصر الأموى والعباسى وما تلاه من عصور ، فبعد تفكك الدولة الإسلامية وظهور أفكار الوحدات السياسية الصغيرة القائمة على الأطماع الشخصية ، التى مهدت لظهور فكرة القوميات فى العصر

---

(٩) المشاركة السياسية للمرأة ـ د . سامية خضر .

(١٠) باسمة الكيال ـ المصدر السابق .

الحديث ، استقلت مصر تحت حكم العديد من الأسر والحكام ، مثل الطولونيين ، والإخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين .

وخلال هذه العصور المتتابعة ظل الخط البيانى لوضع المرأة داخل هذه المجتمعات ـ ومنها المجتمع المصرى ـ فى هبوط ملحوظ ، حتى كادت المرأة تختفى من الشوارع والأسواق ، بل قد اختفت بالفعل وعادت إلى الخلف مئات السنين ، وباتت سجينة الحجاب والبيت والتقاليد ! ! .

ووسط هذا الجو المضطرب اجتماعيًّا وسياسيًّا انتشرت تفسيرات مغرضة ، للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، بما يساير مصلحة الرجل ، تؤازره فى ذلك العادات والتقاليد ، مما أدى فى نهاية الأمر إلى انزواء دور المرأة وإحجامها ، بل وإرغامها وإبعادها عن المشاركة فى أمور السياسة .

■■ شجرة الدر ..

أول ملكة فى الإسلام

غير أننا وسط هذا السرد التاريخى نتوقف كثيراً عند العصر الأيوبى . . حيث شُرف بظهور أول ملكة فى الإسلام فى العصور الوسطى ، وهى شجرة الدر ، التى ـ برغم قصر مدة حكمها التى امتدت إلى ما يقرب من ثمانين يوماً . ـ استطاعت خلال هذه الفترة القصيرة أن تثبت وجودها كامرأة حاكمة وزعيمة سياسية وملكة . ويكفى أنها استطاعت بمن حولها من الرجال أن تقهر الصليبيين فى آخر غزواتها على مصر . وعن طريق اقتناع الشعب المصرى بها كامرأة نزلت بقوة إلى الملعب السياسى آنذاك ، . حتى إن خطباء المساجد قد خطبوا باسمها ، ولُقبت بملكة المسلمين .

وحين نفرد صفحات من هذا الكتاب لحديث التاريخ عن هذه المرأة . . فإننا نكون محقين فى ذلك ؛ لأنها جاءت بعد أزمنة وعصور طال فيها ليل المرأة ، واستمر سجنها خلف القضبان التى تلونت بألوان العصر الذى سُجنت فيه ! ! .

لقد استطاعت شجرة الدر أن تكسر حاجز هذه التفرقة بين الرجل والمرأة ، وكان دورها وتاريخها السياسى يمثل إحدى المراحل الانتقالية التى مرت بها مصر والعالم

العربى بين الفتح الإسلامى ، والفتح العثمانى ، برغم أن هذه السيدة كانت بداية حياتها العامة جارية تُباع وتُشْتَرَى ، ثم ملكة وسلطانة على مصر . . لقد لعبت أخطر الأدوار السياسية ، وحلمت بمفردها لواء الحكم فى أدق الظروف المرتبطة بهجوم جيش الصليبيين على مصر ، وكانت أول امرأة فى الإسلام تعتلى عرش « كليوبترا » ؛ من أجل ذلك ـ ومن أجل مامر بنا من أسباب ـ رأينا أن نعيش معها حياتها العائلية والسياسية .

فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى ، ولدت شجرة الدر فى أحد أحياء مصر القديمة . . التى كانت تعرف آنذاك بالفسطاط . . كانت طفلة جميلة خجولا ، وكانت طموحاتها منذ الصغر لا حدود لها . . مع أنها ولدت داخل أسرة فقيرة . وحين بلغت الثامنة عشرة تُوفيت أمها فسبب لها موتها شعوراً بالوحدة . . بل امتد تأثير رحيل الأم إلى والدها إذ ظل كئيباً فوق كآبة الفقر والحاجة .

ولم يكن أمام الإبنة « شجرة الدر » وهى فى هذه السن من وسيلة كى تخفف آلام أبيها وبقية أفراد أسرتها سوى أن تبيع نفسها فى سوق الجوارى !! . ولكنها فى كل مرة كانت تفشل فى أن يبتاعها أحد النبلاء ! .

وبعد عدة مرات من ذهابها للسوق فتح المستقبل ذراعيه لها ، حيث عرض لشرائها هذه المرة كاتم سر السلطان الكامل ، برغم أنها كانت نحيفة القوام وليست مثل أقرانها من البنات فى السوق .

وعلى الفور انتقلت « شجرة الدر » إلى حريم ولى عهد الدولة الأيوبية الأمير الصالح ، ويقول التاريخ : إنه كان يكبرها بأربع سنوات . ونظراً لما كانت تتمتع به شجرة الدار من حدة فى الذكاء وجمال شرقى أصيل حازت إعجاب الأمير ، وتحول هذا الإعجاب على مر الأيام إلى حُب ! .

وبدخول « شجرة الدر » قصر حريم الأمير الصالح ، اقتربت كثيراً من الأحداث السياسية التى كانت آنذاك داخل القلعة ، والتى يحكى لنا التاريخ عنها بقوله :

كان جو القلعة حينذاك يموج ببعض الاضطرابات السياسية على مستوى الحكم ، خاصة فيما يتعلق بنساء الملك الكامل ! . حيث عاصرت شجرة الدر طلاق والدة ولى العهد الأمير الصالح . وانتقال نفوذ وحكم القلعة من خلف الكواليس إلى السلطانة الجديدة « سودة » . تلك السيدة التى كانت تكره ولى العهد الأمير الصالح أيوب ، وبعدما أنجبت ابنها الأمير العادل حاولت بكل الطرق أن تبعد الصالح من طريق الحكم ، حتى يحل محله أخوه الأصغر الأمير العادل الذى كان يصغره بتسع سنوات ! .

وامتد غضب السلطانة « سودة » وكراهيتها إلى شجرة الدر حيث عرفت ما بينها وبين الأمير الصالح من علاقة ، ورأت فى هذه العلاقة خطورة على ابنها العادل ؛ ومن ثم فكرت جيداً فى التخلص من « شجرة الدر » والأمير الصالح ! .

وقد واتتها الفرصة حين لمست رغبة السلطان الكامل فى الرحيل إلى دمشق لمقاومة أطماع أمير مدينة الكرك ، عندئذ أقنعت السلطان باصطحابهما معاً وإنزالهما قلعة حلب! . وقد كان . . حيث رحب السلطان الكامل ورحلت شجرة الدر ومعها الأمير الصالح وكان ذلك بمثابة نفى إرادى داخل قلعة حلب ومن ثم أصبح الطريق ممهداً أمام ابنها الأمير العادل كى يتولى عرش مصر بعد وفاة والده الكامل .

لقد كان هذا النفى الاختيارى ـ كما تقول روايات التاريخ ـ بداية لنمو أطماع «شجرة الدر » حيث ارتبطت بالأمير الصالح وأنجبت منه طفلها « خليل » .

وقد أشاع هذا الطفل البهجة والسرور فى نفس والده ، مما جعله يتمسك بشجرة الدر أكثر وأكثر ، تلك المرأة التى هداها ذكاؤها إلى معرفة أن رحلتها مع زوجها إلى حلب ما هى إلا نفى بتدبير السلطانة « سودة » . . مما جعلها تقيم حلفاً خفيًّا مع أحد الأمراء المماليك ، ويدعى « فخر الدين » صديق الأمير الصالح ، ذلك المملوك الذى ظل مقيماً فى القاهرة . . وبرغم طول المسافة بين قلعة حلب والقاهرة فإن «شجرة الدر » لم تفقد اتصالها بالحليف الموجود بعاصمة الدولة الأيوبية القاهرة الذى ظل هو الآخر حلقة الاتصال بينها هى وزجها وبين بقية أتباعهما فى قصر حكم الملك

العادل ، الذى تولى الحكم بعد وفاة والده الكامل ، نزولاً على رغبة السلطانة «سودة» بدلاً من تولى الأمير الصالح الحكم .

لقد بدأت شجرة الدر تفكر فى زعامتها السياسية آنذاك ، وكيف تستفيد وتفيد من هذه الزعامة التى بدأت تشق الطريق إليها بنفسها برغم أنها كانت مازالت حبيسة قلعة «حلب » .

ووسط هذه الظروف السياسية المعاكسة علمت « شجرة الدر » بحس المرأة الزعيمة أن هناك انشقاقاً سياسيًّا جديداً على الملك العادل . . تمثل فى قيام أحد مماليك قلعة دمشق بتنصيب نفسه أميراً على دمشق ، منفصلاً بذلك عن حكم العادل ، وعلى الفور قررت الانضمام إلى الأمير المنشق ، واختارت طريق المعارضة السياسية من أجل الوصول إلى الغاية الكبرى ، حيث تحاول إعادة زوجها الأمير الصالح لكرسى عرش مصر ! ، فى الوقت الذى بدأ فيه جهادها السياسى المعارض داخل مصر نفسها يؤتى ثماره ، حيث قام حليفها وحليف زوجها الأمير « فخر الدين » بالانقلاب على الملك العادل . . ولكنه أخفق وتم إيداعه السجن ! .

وفى تطور جديد على طريق الزعامة السياسية رأت شجرة الدر أن تقود بنفسها المعارضة السياسية داخل مصر ؛ لذا قررت العودة هى وزوجها الأمير الصالح من جديد زحفاً بالجيش ! . ومع أن هذه المحاولة لم يُكتب لها النجاح ، فإنها لم تستسلم لليأس . . إنها امرأة سياسية قوية ، لا تهدأ أبداً ما دامت تبحث عن الحق ! .

ولم تطل فترة الانتظار والفشل . . فقد أثمرت جهود المعارضة فى مصر بزعامة الأمير « فخر الدين » الذى نجح هذه المرة فى الإطاحة بالملك العادل وأودعه السجن . . وبذلك أصبح الطريق ممهداً لعودة الأمير الصالح أيوب وزوجته « شجرة الدر » إلى القاهرة وتولى عرش مصر والشام .

لقد نجحت « شجرة الدر » فى العمل على عودة الشرعية السياسية بجهودها فى مجال المعارضة داخل مصر وخارجها .

ولم تتوقف أحلامها عند هذا الحد، بل لا تزال أحلامها فى الزعامة السياسية قائمة، ولعب الحظ دوراً كبيراً فى تقدمها خطوة أخرى فى طريق تولى العرش ، ففى هذه الأثناء كان لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الأخيرة على مصر يحاصر ميناء دمياط . . بعد أن توغل داخل الأراضى المصرية . وكان الملك الصالح أيوب لسوء حظه ، مريضاً ، فلم يستطع أن يقوم بدوره السياسى آنذاك فتأخذ « شجرة الدر» و« أيبك » كاتم أسرار السلطان على عاتقيها مسئولية الدفاع عن دمياط ، ويتابعان الموقف لحظة بلحظة وهما بالقرب من المعركة ، فى الوقت الذى تزداد فيه حالة الملك الصالح أيوب المرضية سوءاً ، مع هزيمة الجيش المصرى بمؤامرة دنيئة فى «دمياط» ودخول الفرنجة الميناء ، وزحفهم ناحية المنصورة ! .وهنا يبرز دور الزعيمة السياسية شجرة الدر أكثر وأكثر ، إذ تحاول لم شمل القادة العسكريين ، حتى المتآمرين منهم على زوجها الملك الصالح ، من أجل رد هذا العدوان ، ونجحت جهودها فى هذا المجال نجاحاً باهراً ، واقتنع قواد الجيش المصرى أن يتحركوا بقيادة شجرة الدر وكاتم أسرار الملك لمقاومة هذا العدوان .

وجاءت اللحظة الحاسمة ، فبينما الاستعدادات تجرى من أجل إجلاء قوات الاحتلال الصليبية مات الملك الصالح . وكانت شجرة الدر تعلم أن انتشار مثل هذا الخبر من شأنه أن يزيد الموقف سوءاً ، ويؤدى إلى التعجيل بهزيمة جيشها ! ، فاتفقت هى وحليفها القديم فخر الدين على تكتم الخبر مؤقتاً حتى يتم النصر الذى جاء مسرعاً . . ونتج عنه الهزيمة الكبرى لجيش الصليبيين ، وأَسْر ملكهم لويس التاسع .

برغم أن « الزعامة السياسية » كانت من شجرة الدر على قيد ذراع أو أقرب ، فإنها فكرت فى استدعاء ابن زوجها الأمير « طوران شاه » كى يخلف والده على حكم مصر والشام ، وبالفعل حضر الأمير ، ولكن المماليك ثاروا عليه وقتلوه .

وجاء دور الشعب المصرى فى الاختيار ، وتحديد من يحكمه بعد موت ولى العهد ، وأمام قوة وشخصية « شجرة الدر » ودورها السياسى الذى قامت به ، ونجاحها الباهر

فى هذا الميدان ، واقتناع الشعب المصرى بهذا الدور الكبير ، وبانتصاراتها الباهرة فى الميدان العسكرى . . أمام كل ذلك سارعت جموع الشعب إلى اختيار « شجرة الدر » ملكة على مصر فى إجماع رائع ! .

وقبلت « شجرة الدر » المنصب تحت إلحاح مطالب الشعب المصرى . من ثم بدأت تمارس حياتها ونشاطها السياسى ، الذى على الرغم من أنه لم يدم سوى ثمانين يوماً فإنها حققت فى تلك المدة القصيرة كثيراً من الإنجازات على المستويين : المحلى والدولى .

ويقول التاريخ عن قصة تنازلها عن الحكم . . إن بعض الحاقدين من المماليك الأمراء احتجوا على هذا الاختيار ! . وأرسلوا برغبتهم هذه إلى خليفة المسلمين فى بغداد ، مستغلين محاولة « شجرة الدر » الاستقلال بمصر عن ولاية الخليفة فى بغداد . عندئذ نجحت جهود المعارضين من المماليك ، فأرسل الخليفة خطاباً بعزلها عن العرش بحجة أنها امرأة !! .

وهنا تثور من جديد . . قضية العادات والتقاليد التى تخالف الشريعة الإسلامية . . حيث استسلم الخليفة هناك فى بغداد وفضل أن يستمع لكلام غريب بحجة واهية مؤداها أن الحاكم امرأة !! . فبرغم أن شجرة الدر تولت حكم مصر بإرادة شعب مصر . . فقد لجأ الخليفة وقتها إلى استخدام سلاح التقاليد فى وجه هذه المرأة نزولاً على رغبة المماليك ، وحفاظاً على ملكه الذى رأى أنه فى سبيله إلى الضياع .

وعندما نواصل سماع رواية التاريخ عن ظروف تنحية الملكة تصيبنا الدهشة من التصرف الحضارى الذى كانت عليه شجرة الدر ، فعندما وصلت رسالة الخليفة إلى القلعة ، اجتمع نواب الشعب وممثلوه ، وكذلك الأمراء والمماليك ، ووقعت مواجهة حادة بين ممثلى الشعب الذين تمسكوا بالملكة « شجرة الدر » وبين هؤلاء المماليك الذى سيطرت عليهم الأهواء الشخصية التى تمثلت فى إبعادها عن عرش مصر . . لقد أصَرَّ نواب الشعب المصرى خلال هذا الاجتماع التاريخى على إبقاء « شجرة الدر » زعيمة سياسية ؛ لما لمسوه من جلائل أعمالها التى أدت إلى تحقيق مزيد من الرفاهية لهم ، فى

الوقت الذى طالب فيه أمراء مماليك ـ لأهواء شخصية ـ بضرورة احترام رغبة الخليفة ، وعَزْل « شجرة الدر » ! .

وهنا يبرز الدور الحضارى للزعيمة السياسية « شجرة الدر » فى اختبار عظيم لمسئولياتها . حيث كان عليها أن تختار بين المصلحة العامة ومصلحتها الشخصية ، ولقد تغلبت عليها المصلحة العامة . فأعلنت بصوت مرتفع من خلف الستار الذى كانت تتابع من ورائه هذاالاجتماع ، تنازلها عن العرش حقناً للدماء . . وحفاظاً على وحدة الشعب المصرى الذى كان بالنسبة لها هو الأهم من بقائها على العرش .

ومن بعد شجرة الدر تولى الحكم كاتم أسرار الملك الصالح أيوب . . الأمير « أيبك» الذى كان حكمه بداية لتولى المماليك حكم مصر ، ومن بعدهم جاء العصر العثمانى ، وفى كلا العصرين انطوت صفحة مشرقة من صفحات كفاح المرأة فى المجال السياسى ، واستمر تراجع المرأة العربية المسلمة فى هذا المجال . وعاشت فى طى النسيان خلف جدران التقاليد التى رأينا أنها تخالف الشريعة الإسلامية .

لقد كان العصر التركى بالنسبة للمرأة العربية بشكل عام هو أقصى عهود الجهل والظلام !! إذ تحولت المرأة إلى مجرد أنثى سجينة التقاليد المنتشرة [١١] . ويظل هذا الامتهان لكيان المرأة ووجودها طويلاً حتى وصول الحملة الفرنسية ، التى يعتبرها العديد من المؤرخين البداية الحقيقية لانتقال مصر والعالم العربى إلى العصر الحديث ، برغم أن هذه الحملة كانت بداية تفكير الغرب فى احتلال بلاد الشرق . .

إن الحملة الفرنسية جاءت إلى الشرق ببعض ملامح حضارة الغرب الحديثة . . وخلف أنوارها كان للمرأة وضع جديد مثل بقية الأوضاع التى بدأت تتغير ، وارتبط هذا التغيير بالعديد من الأسباب التى يأتى فى مقدمتها التعليم ، . وعوامل أخرى كثيرة . . مما أدى فى النهاية إلى تَغَيُّرِ نظرة الرجل إلى المرأة ، وبدأت المرأة تدخل عصر البحث عن الحقوق .

---

(١١) د . سامية خضر ـ المصدر السابق .